

المحبة من خلال الكتب السماوية

محمد فوزي المهاجر

المعهد العالي لأصول الدين.

يتنزل اختيارنا مبحث "المحبة من خلال الكتب السماوية"، في إطار المقارنة بين هذه الكتب (بمضامينها الحالية) بهدف توضيح الرؤى والتصورات، ورسم معالمها رسماً يسهل استيعابها للوقوف على حدود كل رؤية وتصور لمقالة.

ونحن نؤمن بأن جوهر هذه الكتب السماوية الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) يتفق⁽¹⁾ على أن كلام الله يبشر بحب الله للإنسان ورحمته به وعفوه

(1) هناك أمور مشتركة بين الديانات السماوية الثلاث في جانب من العقيدة كالإيمان بالله والملائكة والرسل والكتب المنزلة (إلا أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم). كما أن أهل الكتاب يشتركون مع المسلمين في الإيمان بالحساب وثواب الصالحين وعذاب الطالحين. كما يشتركون أيضاً في مدح الفضائل وذم الرذائل، ووجوب الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والعبادة، جملة وليس على وجه التفصيل. ويشتركون أيضاً في التسامح والإيثار والرحمة والإحسان. وسنبرز في هذه الدراسة بعض جوانب هذا التقارب والاشتراك المتعلق أساساً بالمحبة لله وللآخرين، بغض النظر عن اختلاف الباحثين التوراتيين فيما بينهم حول مادة "التوراة": ضبطها وجمعها وتوقيتها، إذ أنها لم تكتب على يد مؤلف واحد، بل قام بهذه المهمة مؤلفون كثيرون في عصور متباعدة، امتدّت إلى أكثر من ألف عام، وقدّر البعض تاريخ الانتهاء منها حوالي 440 ق م، وربما في تقدير آخر حتى القرن الأول ق م. ونفس الشيء، يقال عن الإنجيل. (أنيس فريجة،

عنه، وتوفيقه إلى السبيل المؤدية إليه، والشبه بين هذه الديانات السماوية الثلاث في هذا المجال بين، إذ أجمعوا على صدق تجربتهم في الاتحاد بالذات الإلهية بفضل "النجدة الإلهية". وقد عبرت وبطرق متشابهة، رغم الاختلافات العقائدية عن مشكلية روحية واحدة وتوصلوا جميعا إلى نفس النمط من الحل.

إن اختيارنا المفهوم الديني للمحبة، يأتي أيضا في إطار ما للعامل الديني من وظيفة إصلاحية / توجيهية هامة، في حياة الإنسان. فهو من بين ما يعرف

دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت 1980، ص 198 / وانظر أيضا : فراس السواح، مغامرات العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ط 2، 1979، ص 108.

كما يؤكد العلماء والدارسون اليهود والمسيحيون على السواء، صحة كتابهم المقدس. مبرزين أن هناك عديد القرائن التي تظهر صحة أقوالهم : من ذلك ما ذكره القمص مرقس عزيز خليل في كتابه استحالة تحريف الكتاب المقدس من أن القرآن الكريم نفسه يشهد بصحة هذا الكتاب. وقد استشهد في هذا الإطار بالآيات التالية :

- وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة، 42).
- أَفَتَعْلَمُونَ أَنَّ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ (البقرة، 75).

- وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (البقرة، 101).

- إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البقرة، 174).

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ (آل عمران، 70).

- وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْعُونُ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِخُسْبُوهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران، 78). موضعا أن

كل هذه النصوص تدل بوضوح « .. أن اليهود والنصارى مع علمهم بأمر رسول الإسلام في كتبهم

كما يدعي القائلون بوجود آيات بالكتاب تشير إلى رسول الإسلام -، لم يقدموا على حذف هذه النصوص من كتبهم أو تحريفها بل أبقوها كما هي، فقط اقتصرُوا على تشويش هذه الأدلة وتحريف

كلام الله بالتأويل والإخفاء وأن هذه الآيات تدل على أن رسول الإسلام (عليه السلام) كان يعلم

بسلامة التوراة والإنجيل من التحريف فلم يقل أن هذه الكتب ليست هي التي نزلت على موسى (وعيسى) عليهم السلام) .. « بل بين الرسول أنهم حرقوا وكتَمُوا هذه النصوص. ثم أشار في هذا

الإطار أيضا إلى أن تفسير الجلالين، والفخر الرازي والبيضاوي، تتفق على أن التلبيس والكتمان كانا بالتأويل والإخفاء، وليس بنزع آيات وتعويضها بأخرى. أي أن دور أهل الكتاب في تلك الفترة

كما يصوره القرآن - حسب رأي مرقس عزيز خليل - اقتصر على تشويش تلك الدلائل. (مرقس عزيز خليل، استحالة تحريف الكتاب المقدس، كنيسة القديسة مريم العذراء والشهيدة العفيفة دميانة [الكنيسة المعلقة]، سان بيتر للأوفست، ط 8، 2003، ص 84 - 85 - 86) / انظر أيضا : وليم كامبل، القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم، Light of Life. Villach. Austria.

بالمقومات الكونية للثقافة. وبالجمله، فإنّ وظيفته في حياة الإنسان الفرديّة والجماعيّة وظيفه إدماج، سواء على مستوى حياة المجموعة كما وصفه دوركايم (Durkheim) أو على مستوى الحياة الفرديّة كما ذكره وليام جيمس (James.W) وج. ألبرت (Albert.J)، وفروم (Fromm.E) .. في كتاباتهم⁽²⁾ خاصّة أمام ما يشهده عالمنا المعاصر من تناحر وتخاصم بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وإذا كان هذا الكلام ينطبق على الدّين عامّة، فإنّه من الأولى أن يتعلّق بالسّماويّة منها، - وإن كانت هي الأخرى تختلف فيما بينها حول جملة من العقائد الثّابتة والمشاركة، في تأويلها، وفهمها. من هنا أصبح مبدأ التّسوية بين الدّينان، السّماويّة والوضعيّة أمراً يتنافى مع المنطق والموضوعيّة. ورغم عدم التكافؤ والتّفاوت الواضح بين هذه الدّينان، فإنّ السّماويّة منها تتّفق، وتلتقي في الأصل/قبل التحريفات، حول جملة من العقائد والشرائع والأخلاقيّات : كتوحيد الله والإيمان بالأنبياء والرّسل، وانتظار يوم الدين، وتقدير الأخلاق واحترامها وحسن المعاملة، ومحبة الله والآخر عامّة.

ومن هنا اعتبر الإسلام أنّ الدّين واحد والشرائع شتّى، فالله تعالى لم يوح إلاّ بدين واحد هو الإيمان به والتّسليم له، ثمّ حسن الخلق والمعاملة، يقول تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾⁽³⁾ فالإيمان عند الله واحد لا

(2) Sélection d'articles extraits de la Revue Internationale des Sciences Sociales, Vol (2

XXIX, Unesco, 1977. أبعاد الدين الاجتماعيّة، تعريب : صالح البكاري، الدّار التّونسيّة للنشر، سلسلة

موافقات، تصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة، تونس، 1993، ص 17.

(3) سورة البقرة، 136.

يَتَجَزَأُ، أَمَّا الشَّرَائِعُ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ، وَكَذَلِكَ الْمَنَاهِجُ وَالسَّبِيلُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤﴾.

وإنّنا حين نبحث في هذه الكتب السّماويّة/غير الإسلاميّة، فإنّنا نقّدي بالفيلسوف والمتكلّم أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) ثمّ المفكر المصلح الشيخ محمّد عبده (ت1296هـ/1905م) اللّذين افترضا صحّة جانب من هذه الكتب، وانطلاقاً من اعتقاد اليهود والمسيحيّين والمسلمين في صحّة كتبهم ومصدرها الإلهي/السّماوي. إنّ هدفنا من هذه الدراسة إنّ هوّ الوقوف على مدى اتّفاق الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، مع القرآن، في تكريس هذه القيمة - المحبّة لله وللآخرين - التي أصبح عالمنا المعاصر في أمس الحاجة إليها.

ثم إنّ تقريب وجهات النّظر بين المجتمعات اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة - أكبر الطوائف الدّينيّة - في عالمنا المعاصر، يمرّ أساساً عبر معرفة القيم المشتركة بين هذه الدّيانات ذات المصدر الواحد، والهدف الواحد. كما يمرّ عبر معرفة كلّ طرف للآخر على حقيقته، لا كما نريده نحن أن يكون. من هنا تكون معرفة التّراث الدّيني للآخر وما يحويه من نزعة إنسانيّة، سبيلاً إلى التعايش في كنف التّحابب والاحترام المتبادل مع وعينا المسبق بما لعبه الإنسان من دور - عبر التاريخ - في تأويل هذه القيم والمفاهيم الدّينيّة السّامية، خدمة لأغراض آنيّة دنيئة.

ثم إنّنا لا نشكّ بأنّ معنى بعض الكلمات يتغيّر بمرور الزّمن بينما يبقى معنى البعض الآخر بدون تغيير. واليوم إذا عرفنا كلمة "المحبّة" قد نحفظ بمعناها القديم، وقد نعطيها معنى جديداً. واستعمالنا وحده هو الذي يحدّد المعنى القديم أو يعطي المعنى الجديد. وعليه، فإنّه يجب أن نجد معنى الكلمة في

استخدام الناس لها، لأننا نخدع أنفسنا لو حاولنا تعريف الكلمة بالرجوع إلى الأصل القديم، فهذا الرجوع للقديم لا يعطينا المعنى المعاصر، كما أن المعنى الحديث لا يعطينا المعنى القديم. من هنا يجب أن نتقصى استعمال كلمة ما لنعرف ما قصده بها اليهود في فترة ما قبل الميلاد، وما قصده بها المسيحيون في الفترة الميلادية، وما قصده المسلمون في فترة البعثة / القرن السابع ميلادي⁽⁵⁾.

وإذا أخذنا مثلاً مدلول كلمة محبة نجد أن هذه اللفظة متداولة عند صوفية الأديان السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)، الذين يسمون بحب الله للبشر وحب البشر له تعالى. انطلاقاً من أن الحب هو المعرفة، إن لم يكن هو الوسيلة الوحيدة لإدراك الله تعالى.

1 - مفهوم المحبة :

حب : الحب، (بالظم)، نقبض البغض. والحب : الوداد والمحبة، وكذلك الحب (بكسر الحاء). [..] والمحبة إسم للحب. ... وهم يتحابون أي يحب بعضهم بعضاً..⁽⁶⁾. يقول تعالى مخاطباً موسى عليه السلام : .. وَأَقْبِئْ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ..⁽⁷⁾.

والحب في اللغة، هو اسم لصفاء المودة. لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حب الأسنان، وقيل الحب ما يعلو الماء عند المطر الشديد. والحب دافع نحو الخير، كما يتضح عند أفلاطون (428 - 348 ق م) الذي اهتم

(5) كامبل وليم، القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم، Light of Life. Villach. Austria / [هو كتاب يرد فيه صاحبه - وهو طبيب - على كتاب مورييس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم]، ص 17.

(6) ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1419 هـ/ 1999 م، ج 3، ص 7 - 9 / انظر أيضاً : محيط المحيط، للبستاني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1998، باب الحاء، ص 141.

(7) سورة طه، 39.

بالحبّ اهتماماً كبيراً في محاورتيه « المأدبة » و « فايدروس » وإن كان حديثه في الحبّ ممتزجاً أحياناً بالأساطير (8).

والحبّ أيضاً عشق وانجذاب للمحرك الأول كما يرى أرسطو 384 - 322 ق م. أي هوّ العشق الذي يجذب الموجودات كلّها إلى المحرك الذي لا يتحرك أو المبدأ الأول. يقول في كتابه المقال الثاني عشر - الفصل السابع الفقرة أ : « وتحريكه (الموجود الأول) إنّما يكون عن طريق أنّه معشوق ومعقول فالأشياء المحركة على هذه الجبهة إنّما تحرك من غير أن تتحرك، وفي المبادئ الأول المعشوق والمعقول والمفضول هم شيء واحد، وما حسن نشتهيه ونشأته لأنه نراه حسناً والأول نختاره لأننا نراه حسناً ونشتهيه لأننا نعقله وليس أننا نشتهيه، وابتداء العشق إنّما هو يعقله من العلة الأولى » (9).

من هنا ندرك أنّ الحبّ هو فناء في الجمال الأزليّ (الإلهي) أي هو غرق في بحور النور، أو الاحتراق بنور الشوق نحو مطالعة الجمال الأزلي. وقد أكدت العقيدة التوراتية وألحّت على وصيّة الحبّ. الله يحبّ شعبه، وإسرائيل يجب عليه أن يحبّ ربّه. وإنّ نشيد الإنشاد le cantique des cantiques (10) له مكانة خاصّة، فهو بحق أنشودة للحبّ وما ورد فيه من صور للحبّ تطابق مظاهر الحبّ الإنساني (11).

(8) زيادة معن : الموسوعة الفلسفيّة، معهد الإنماء العربي، ط 1 1986، المجلد 1، ص 350.

(9) المرجع نفسه، ص 350.

(10) نشيد الإنشاد هو قصّة علاقة حميمة بين رجل وامرأة، .. تصوّر حوار محبة بين فتاة يهودية بسيطة (من شوليت) وحبيبها (الملك سليمان). ويصف السفر بالتفصيل مشاعرهما من نحو أحدهما للآخر... ويقول البعض إنها قصة رمزيّة سرّ الله لشعبه القديم أو الكنيسة. ويقول البعض الآخر إنها قصة واقعيّة عن المحبة الزوجية. وهي في الحقيقة تعبر عن كليهما معاً. انظر : التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، أخذ النص الأصلي من الكتاب المقدس « كتاب الحياة » الذي ترجم عن اللغات الأصلية بلغة عربية معاصرة، تعريب وجمع : شركة ماستر ميديا، المعادي، مصر (د - ت)، ص 1364.

(11) روجيه أرنولدز : رسل ثلاث إله واحد، عويدات للنشر، بيروت، ط1، 1988، ص 180/ انظر أيضاً : Trois Messagers pour un seul Dieu, Ed. Albin Michel, Paris, 1983 عن : عبد الرزاق الحمامي، من قضايا الفكر الديني بتونس، الدار التونسية للنشر، تونس 1992، ص 30-31.

ف « محبة الله والناس من أسس الديانة الصحيحة سواء في العهد القديم أو في العهد الجديد، وقد قال "الرب" يسوع بهاتين الوصيتين (المحبة لله والآخرين) يتعلّق الناموس كلّهُ والأنبياء (متى 22 : 40، مرقس 12 : 28 - 34). كما وصف الرسول بولس المحبة في أنشودته الرائعة، بأنّها أعظم الفضائل في الحياة، فهي أعظم من التكلّم باللسنة، ومن موهبة النبوة، ومن الإيمان الفائق الذي ينقل الجبال، فمع أنّ هذه المواهب جميعا مطلوبة ونافعة جدّا، إلّا أنّها بدون المحبة، لا تساوي شيئا وبلا قيمة باقية في نظر الله. ولا يعني ذلك أنّ الربّ يسوع أو الرسول بولس يقلّان من قيمة الإيمان الذي تصدر عنه كلّ الفضائل، كما أنّه أساس معاملات الله مع الإنسان، وعلاقة الإنسان بالله (يوحنا 6 : 28 و 29، عبرانيين 11 : 6)، لكنهما يؤكّدان أنّ الإيمان ليس شيئا إلّا إذا كان عاملا بالمحبة من نحو الله ومن نحو الإنسان (1 كور 13 : 2).

ولما كانت المحبة هي أسمى تعبير عن الله وعن علاقته ببني البشر، فلذلك ينبغي أن تكون أسمى تعبير أيضا عن علاقة الإنسان بخالقه وبأخوته في البشريّة»⁽¹²⁾.

وتوصف المسيحية بأنّها ديانة محبة، يظهر ذلك أساسا في كتابهم المقدّس. فقد جاء في أنشودة المحبة ما يلي : ... لو كنت أتكلّم بلغات الناس والملائكة وليس عندي محبة، لما كنت إلّا نحاسا يطنّ وصنجا يرنّ ولو كانت لي موهبة النبوة، وكنت عالما بجميع الأسرار والعلم كلّهُ، وكان عندي الإيمان كلّهُ حتى أنقل الجبال، وليس عندي محبة فلست شيئا.. المحبة تصبر طويلا، وهي لطيفة. المحبة لا تحسد. المحبة لا تتفاخر ولا تتكبر، لا تنصرف بغير لياقة. ولا تسعى إلى مصلحتها الخاصة. [...]

(12) بباوى ولیم وهبة : دائرة المعارف الكتابية، دار الثقافة - لبنان، (د- ت) المجلد الثالث، ص 7 - 8.

أما الآن، فهذه الثلاثة باقية : الإيمان، والرجاء، والمحبة. ولكن أعظمها المحبة، اسعوا وراء المحبة.. (13).

يقدم الرسول في الإصحاح الثاني عشر الدليل على افتقار المسيحيين في كورنثوس للمحبة، وفي الإصحاح الثالث عشر يوضح ماهية المحبة الحقيقية، وفي الإصحاح الرابع عشر كيف تعمل المحبة. فالمحبة أهم من جميع المواهب الروحية التي تمارس في جسد المسيح أي الكنيسة. فالإيمان العظيم والقدرة على المعجزات، بلا محبة، لا يجديان كثيرا (14).

والحب عند صوفية الإسلام مستمد من استخدام القرآن للفظ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (15) فالإسلام لا ينأى عن هذه المعاني السامية للمحبة لله وللآخرين. ولكن القرآن يتحدث عن أصناف للحب، يمكن حوصلتها في التالي :

حب عمودي : بين الله والإنسان - ذكرت [21] مرة في القرآن باستثناء الحب المنفي « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ .. ». أو من الإنسان إلى الله - ذكرت [5] مرات (بعضها مسبوق بأداة شرط « إِنَّ »). وفيه دليل على حب الله تعالى لعباده/خلفائه في الأرض : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (16).

(13) الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس، 13.

(14) التفسير التطبيقي للعهد الجديد، New Arabic Version, Adapted from Life Application Bible, 1988, by Tyndale House Publishers, Inc., Wheaton, IL 60189, USA../ Printed in Great Britain, ص 593 .

- منيف عبد النور : المحبة لا تسقط أبدا (تأملات في إصحاح المحبة 1 كورنثوس 13)، نشر كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، القاهرة، شركة الطباعة المصرية، 2005.

(15) سورة المائدة، 54.

(16) سورة النور، 55.

حبّ أفقي : من الإنسان إلى الإنسان [5] مرّات. من الرّسول إلى النّاس [1] مرّة واحدة. من الإنسان إلى شيء [الدنيا]، [23] مرّة [حبّ طبيعي يتطلّب به المحبّ إرضاء نفسه]. وهو سبيل إلى التماسك الاجتماعي والبناء الحضاري والمدنيّة الإنسانيّة (17).

2 - المحبة من خلال العهدين القديم والجديد :

من خلال تأملنا في الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، يمكننا ملاحظة أنّه يزخر بالقيم السّماويّة النّبيلة، التي تدعو إلى تنظيم حياة الإنسان في هذا الكون. وتحتّ على التحابب بين بني الإنسان مرضاة الله تعالى. ويصوّر لنا هذا الكتاب نماذج من مختلف أنواع الحبّ، كثيرا ما تميّز بها الخطيئة. ولكننا نجد فيها أيضا استقامة وعمقا وإخلاصا في عبارات تتسم بالبساطة والحشمة. إنّ شعب إسرائيل لا يميل إلى الأسلوب النظري في التفكير، ولذا فهو كثيرا ما يعطي للكلمات صبغة عاطفيّة، فالمعرفة عنده تتضمّن المحبة وأمانته للرّوابط الاجتماعيّة والعائليّة.. مشبعة بالحميّة وبالسّخاء التلقائي.. (18).

17) الضاوي خوالدية : دراسات في الفكر العربي الإسلامي، ص 82 - 83 - 84.
- يبدو من خلال هذه الإحصائيات لمادّة حبيب في القرآن الكريم، أنّ حبّ الإنسان للإنسان كما وصفه الوحي لم يتجاوز خمس مرّات، وحبّ الرّسول صلى الله عليه وسلم النّاس مرّة واحدة، فكيف يمكننا أن نفهم ذلك ؟ لعلّ القرآن في هذه الحالة يصف أنانيّة العربي وفرديّة مقابله حبّه للدنيا التي ذكر حبّها 23 مرّة. وواضح أنّ الإسلام كان أداة إنقاذ لهذا المجتمع الجاهلي، فوحد القبائل وصالح العرب مع أنفسهم وفتح الآفاق ورسم الأهداف. وباختصار حملهم الرسالة. والمهمّ أنّ روح التحول العربي كان بواسطة الحبّ الذي على نزره قد فعل بعمق في الذات العربيّة التي تجاوبت مع الحبّ الإلهامي تجاوبا جعله يفيض على المجتمع والدنيا فكانت المصالحة مع الذات والله والطبيعة وكان الخلق والإبداع. (الضاوي خوالدية : دراسات في الفكر العربي الإسلامي، مطبعة النصر، القيروان، تونس، 1996، ص 82 - 83 - 84).

18) أنطونيوس نجيب، معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت، ط 2، 1988، ص 712 / انظر أيضا :

XAVIER Léon- Dufour, Vocabulaire de théologie biblique, Editions Cerf, Paris, 1962, p38

- سفر التكوين، 49 : 24، يشوع 12 : 2 - 14، راعوت 3 : 10، زكرياء 7 : 9.

أ - حوار المحبة بين الله والإنسان :

- العهد القديم :

وردت « كلمة "أحب" (بالعبرية أهب وبال يونانية agapàn) نادرة الاستعمال .. وقد اقتصر استعمالها في العهد القديم على النطاق الدني. وقصارى القول إنّ الإنسان في نظر الكتاب المقدس، يقدّر قيمة المشاعر العاطفية⁽¹⁹⁾. وعندما يدخل مفهوم المحبة في وجدانه الدني، يكون مفعما بخبرة إنسانية مكثفة وواقعية. وفي الوقت نفسه، يثير هذا المفهوم أسئلة عديدة .. وإذا يتنازل الله العظيم فيحبّ الإنسان الضعيف الخاطئ، فكيف يستطيع الإنسان بدوره أن يجيب على هذه المحبة ؟ وما هي الصلة بين محبة الله ومحبة الإنسان ؟⁽²⁰⁾.

وإزاء هذا القلق النفسي عند الإنسان، يجيب الكتاب المقدس بكل وضوح فيقول : "إنّ الله قد أخذ المبادرة وأنشأ حوار محبة مع البشر، وباسم هذه المحبة، يدعوهم إلى أن يحبوا بعضهم بعضا ويعلمهم كيف تكون هذه المحبة". فهذا نشيد الإنشاد - وهو أنشودة عرس تكرم الزواج، وقداسة المحبة الطاهرة. فعندما تطوّرت العلاقة بين سليمان وعروسه اتّضح جمال وروعة الحب، ففوة المحبة العارمة تؤثر على قلبي وجسدي الحبيين. لأنّ المحبة تعبير قويّ بهذا المقدار عن المشاعر والعواطف المتبادلة بين شخصين، فيجب ألا ينظر إليها باستخفاف⁽²¹⁾.

(19) الأمثال 15 : 17.

(20) الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس، 13.

(21) نشيد الإنشاد 1:8.

- التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص 1364-1365-1366.

إذن بالرغم من أن كلمة "محبة" لا ترد في العهد القديم إلا في روايات الخلق (22)، فهي تشير إلى محبة الله خلال العطف الذي يبديه نحو آدم. وتظهر هذه المحبة أيضا في :

✽ وحي الله لخلّانه : عندما نادى الله إبراهيم المختار عليه السلام (23)، من بين الوثنيين (24) لكي يصبح خليله (25). ولم يصل إبراهيم عليه السلام إلى هذه المرتبة إلا لأنه تجاوب مع مطالب الحب الإلهي.

✽ وحي الله لأنبيائه : إن الأنبياء هم أيضا مؤتمنون على أسرار الله (26)، يحبهم الله محبة شخصية، يستولي عليهم باختياره.

✽ نحو حوار شخصي : بعد تطهيره بالاختبار اكتشف إسرائيل أكثر فأكثر أن الحياة مع الله هي حوار حب... وبعد السبي أيضا أدرك الشعب، بطريقة أوضح أن الله يتوجه إلى قلب كل شخص فهو لا يحب المجموعة ككل (27) أو رؤسائها فحسب (28).

(22) سفر التكوين 1 : 2 - 3.

(23) جاء في موسوعة الكتاب المقدس : أن اسم أبرام تغيّر إلى إبراهيم ومعناه : [أبو جمهور]، لمّا وعده الله بأن يجعله مؤسس الأمة العبرانية. كان موطن إبراهيم الأصلي هو مدينة أور، الغنيمة والفخمة على ضفاف الفرات... : موسوعة الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس/ دار منهل الحياة، لبنان، 1993، ص 1).

(24) « فأخذت أباكم إبراهيم من شرقي النهر وقتته عبر أرض كنعان.. » يشوع 24 : 2 - 3.

(25) « يا ذرية إبراهيم خليلي.. أنت عبيدي. لقد اصطفيك.. » أشعيا 41 : 8.

(26) « إن السيد الرب لا يجري أمرا من غير أن يعلن سرّه لعبيده الأنبياء. » عاموس 3 : 7.

(27) « لأنّه أيّ شعب مهما عظم، له آلهة قريبة منه مثل الربّ إلّاهنا في كلّ ما ندعوه ؟ وأيّ شعب مهما عظم لديه شرائع وأحكام عادلة نظير هذه الشرائع التي أضعها اليوم أمامكم؟ » تثنية 4 : 7.

(28) « وعليكم بتقوى الربّ وعبادته بأمانة من كلّ قلوبكم، متأملين العظائم التي صنعها معكم. وأمّا إن ارتكبتم الشرّ فمصيبركم أنتم وملككم الهلاك. » صموئيل 12 : 24 - 25

ولكن كلّ يهودي وبخاصّة البارّ⁽²⁹⁾، والفقير والصّغير⁽³⁰⁾ بل تظهر تدريجيّاً الفكرة أنّ محبة الله تتجاوز اليهوديّ وتخصّ أيضاً الوثنيين وحتى كلّ خليفة⁽³¹⁾، فقال الربّ : [مخاطبا يونان] لقد أسفقت أنت على اليقطينة التي لم تتعب في تنميتها وتربيتها. هذه اليقطينة التي ترعرت في ليلة وذوت في ليلة . أفلا أسفّق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يقيم فيها أكثر من مائة وعشرين ألف شخص ممّن لا يفرّقون بين يمينهم وشمالهم، فضلا عمّا فيها من بهائم كثيرة ؟⁽³²⁾، وتعليقا على هذه الآية التوراتيّة جاء في كتاب التّفسير التّطبيقي للكتاب المقدّس ما يلي : « يودّ بعض النّاس في بعض الأحيان لو نزل القصاص والهلاك بالخطأة الذين طغى شرّهم حتى استدعى عقابا فورياً. لكن الله رحيم أكثر ممّا نتخيّل، فهو يشعر بالعطف على هؤلاء الخطأة الذين نستعجل عقابهم، ويدبّر الخطط لاستعادتهم. ما موقفك من محترفي الشرّ أولئك ؟ هل تتمنّى هلاكهم ؟ أم تتمنّى من قلبك أن يختبروا محبة الله وغفرانه ؟ »⁽³³⁾ هكذا، عند اقتراب مجيء المسيح عليه السلام، يدرك اليهودي التقيّ [بالعبريّة : حسيد]⁽³⁴⁾ الذي يتأمّل الكتاب المقدّس أنّ الله يحبّه⁽³⁵⁾. وحبّ الله ومخافته يعدّان جزءا لا يتجزأ من شريعة موسى عليه السلام، وهما ليسا مجرد نصيحة،

(29) « كنت صبيا وأنا الآن شيخ، وما رأيت صدقا متروكا، ولا ذريّة تستجدي خبزا، يترأف اليوم كلّ، ويقرض الآخرين وتكون ذريّتهم بركة لغيرهم. حد عن الشرّ واصنع الخير.. » مزمو 37 : 25 - 29.

(30) « ينهض المسكين من التراب، ويرفع البائس من المزبلة ليجلسه مع أشراف شعبه.. » مزمو 113 : 5 - 9.

(31) « فم الصديق ينبع بكلام الحياة، أمّا فم الشرير فيطغى عليه الظلم.. البغضاء تثير الخصومات، والمحبة تستر جميع الذنوب. » الأمثال 10 : 11-12.

(32) يونان 4 : 10 - 11.

(33) التفسير التّطبيقي للكتاب المقدّس، ص 1780.

(34) مزمو 135 - 4.

(35) XAVIER Léon- Dufour, Vocabulaire de théologie biblique, pp 38 - 39.

لكنهما أمر، أي تعليم حقيقي⁽³⁶⁾. فالإذعان للوصايا هو تعبير عن حب بني إسرائيل لإلاهمهم.

- العهد الجديد :

رأينا أن المحبة بين الله والبشر قد انكشفت في العهد القديم خلال سلسلة من الأحداث، مبادرات إلهية من قبل الله، ورفض من قبل الإنسان، عذاب الحب المنبوذ وارتقاء أليم لدى الإنسان لكي يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الحب ويتقبل نعمته. وفي العهد الجديد، يعتقد المسيحيون أن هذا الحب الإلهي، يتجلى من خلال حادث فريد من شأنه أن يحول بذاته كل معطيات الموقف، "وهو أن المسيح نفسه يأتي إلى عالمنا ليعيش كإله متأنس درامة حوار المحبة بين الله والإنسان"⁽³⁷⁾، فالمسيح حسب هذا المعتقد/ المسيحي إذن هو : "هبة الآب"⁽³⁸⁾.

إذن تعتقد المسيحية أن مجيء عيسى/ يسوع عليه السلام، " هو أولاً مبادرة من الآب⁽³⁹⁾ بعد ما كلمنا بالأنبياء وقدّم لنا وعود العهد القديم، تذكر الله رحمته⁽⁴⁰⁾ وأخبر عن نفسه⁽⁴¹⁾ وأظهر محبته⁽⁴²⁾ في الشخص الذي هو ليس فقط المسيح المخلص المنتظر⁽⁴³⁾ بل أيضا ابنه بالذات الذي

(36) G. Vagda, L'amour de Dieu dans la théologie juive au Moyen Age (رسالة ثلاث إله واحد، ص 88 / انظر أيضا : سفر الخروج 20 : 5 - 6 / تشيئة الإشتراع 10 : 5).

(37) المرجع نفسه، ص 39.

(38) المرجع نفسه، ص 39.

(39) الآب : Le Père / The Father تسمية عربية للدلالة على الله الآب (الآب صبحي حموي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، دار المشرق - بيروت، ط 1، 1994، ص 2).

(40) لوقا 1 : 54 - 55، عبرانيين 1 : 1 - 2 .

(41) يوحنا 1 : 18.

(42) رومة 8 : 39، يوحنا 3 : 1، 4 : 9.

(43) لوقا 2 : 11 .

يحبّه (44). وعندئذ « يظهر حبّ الآب على أسمى وجه، ها هو العهد الجديد قد تحقّق وانعقدت أفراس الزفاف الأبدية بين العريس والبشرية حيث يصل السّخاء الإلهي الذي ظهر منذ نشأة إسرائيل.. إلى قمتّه. وبقبول الابن لا يستطيع الإنسان إلّا أن يتخلّى عن كبريائه وعن كلّ زهو مبني على فضله الشخصي، إذن إنّ هبة الحبّ هذه التي يقدّمها لنا الله مجانية محضة (45) وهذه الهبة نهائية لا رجعة فيها تتجاوز حياة المسيح على الأرض (متى 28 : 20، يوحنا 14 : 18 - 19) وهي تصل إلى أقصى حدّ إذ أنّ الله يرتضي بموت الابن لكي تكون الحياة للعالم (رومة 5 : 8، 8 : 32)، لكي نصبح أبناء الله (يوحنا 3 : 1، غلاطية 4 : 4 - 7) فإن الله بلغ من حبّه للعالم أنّه جاء بابنه الواحد (يوحنا 3 : 16)، لكي ينال البشر الحياة الأبدية. ولكن الذين يرفضون أن يؤمنوا بالذي أرسله ويستحبّون الظلام على النور (يوحنا 3 : 19) يجلبون الدينونة على أنفسهم » (46) فلا بدّ من الخيار إذن بين المحبة بواسطة الإيمان بالابن (47)، أو الغضب برفض هذا الإيمان.

وتذهب المسيحية إلى أنّ درامة المحبة لا تظهر في العلاقة بالمسيح عليه السّلام فحسب، بل في شخصه بالذات. فالمسيح عليه السلام بوجوده - كما يعتقدون - تجسيد للحبّ. « فهو بصفته إنسان يحقّق الحوار البنيوي مع الله ويشهد له أمام البشر. وبصفته إله يأتي ليعيش حبّه، في بشرية كاملة ليسمعنا

(44) مرقس 1 : 11، 9 : 7، 12 : 6 / يوحنا 3 : 35، 10 : 17، 15 : 9.

(45) رومة 5 : 6 - 7، تيطس 3 : 5، 1 يوحنا 4 : 10 - 19.

(46) نجيب أنطونيوس، معجم اللاهوت الكتابي، ص 713.

(47) ابن الله : اسم يطلق في الكتاب المقدس على الملائكة وعلى خلف شيت وعلى شعب بني إسرائيل، وبنوع خاص على يسوع المسيح، وعلى كل مسيحي معتمد أخيراً ... (لأب صبحي حموي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، ص 8).

نداءه الحار، في شخص يسوع⁽⁴⁸⁾، يحب الإنسان الله، كما أنه موضوع محبته.. «⁽⁴⁹⁾.

وترى المسيحية أن هذا الحب يدعو إلى المعاملة بالمثل. فلا تزال الوصية التي جاء بها سفر التثنية سارية المفعول : وعلم الفريسيون أن يسوع أسكت الصدوقيين فاجتمعوا معا. فسأله واحد منهم، وهو من علماء الشريعة، ليخرجه : يا معلم، ما هي أعظم وصية في الشريعة ؟ فأجابه يسوع : أحب الرب بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل عقلك.. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والوصية الثانية مثلها : أحب قريبك مثلما تحب نفسك.. على هاتين الوصيتين تقوم الشريعة كلها وتعاليم الأنبياء⁽⁵⁰⁾.

إلا أن هذه الوصية لا يتم تنفيذها الآن إلا عن طريق يسوع : فحبنا له، نحب الأب⁽⁵¹⁾. بناء عليه، يعتقد المسيحيون أن محبة عيسى عليه السلام تعني المحافظة التامة على كلامه، والتضحية بكل شيء في سبيل أتباعه. وهكذا يشاهد المسيحيون من خلال كل صفحات الإنجيل الانقسام الذي يتم بين الذين يقبلون هذا الحب والذين يرفضونه. « ولا سبيل هنا إلى الحياد (يوحنا 6 : 60 - 71، راجع يوحنا 3 : 18 - 19، 8 : 13 - 59، 12 : 48) »⁽⁵²⁾.

وتبعا لهذا، ندرك أن المسيحية تعتقد بحسب كتابها المقدس، أن جوهرها يقوم على المحبة،⁽⁵³⁾ لله وللقريب. وعلى هذا الأساس وحده سيجازي الله كل الناس يوم البعث. فها هو المسيح يدين العالم أجمع كما يذكر متى الذي جاء في

(48) انظر في هذا الإطار : الأسقف فستو كيغنجري، المحبة بلا حدود، تعريب فؤاد زكي، لجنة خلاص النفوس للنشر، مطبعة الخلاص، مصر، ط 3، 2001.

(49) أنطونيوس نجيب، معجم اللاهوت الكتابي، ص 714.

(50) متى 22 : 34 - 40، انظر Vocabulaire de théologie biblique, p : 40.

(51) متى 10 : 40، يوحنا 8 : 42 - 14، 21 - 24.

(52) المرجع نفسه، ص 36.

(53) Les Discours sur l'amour, in Encyclopaedia Universalis, Paris, 1993, p224.

إنجيله، تحت عنوان يوم الدينونة : ومتى جاء ابن الإنسان في مجده ومعه جميع ملائكته فيجلس على عرشه المجيد وتحتشد أمامه جميع الشعوب فيفرز بعضهم عن بعض مثلما يفرز الراعي الخراف عن الجداء، فيجعل الخراف عن يمينه والجداء عن شماله ويقول الملك للذين عن يمينه، تعالوا يا من باركهم أبي رثوا الملكوت الذي هيأه لكم منذ إنشاء العالم، لأنني جعت فأطعمتموني وعطشتم فسقيتموني وكنت غريبا فأويتموني، وعريانا فكسوتهموني، ومريضا فزرتهموني وسجينا فجئتم إليّ. فيحييه الصالحون : يا ربّ متى رأيناك جوعانا فأطعمناك ؟ أو عطشانا فسقيناك ؟ ومتى رأيناك غريبا فأويناك ؟ ... فيجيبهم الملك : الحقّ أقول لكم : كلّ مرّة عملتم هذا لواحد من إخوتي هؤلاء الصّغار، فلي عملتموه. ثم يقول للذين عن شماله :

ابتعدوا عني يا ملاعين إلى النّار الأبديّة المهيّأة لإبليس وأعوانه. لأنني جعت فما أطعمتموني، وعطشتم فما سقيتموني، وكنت غريبا فما آويتموني ... فيجيبه هؤلاء : يا ربّ متى رأيناك جوعانا أو عطشانا، غريبا أو عريانا، مريضا أو سجينا وما أسعفناك ؟ فيجيبهم الملك : الحقّ أقول لكم : كلّ مرّة ما عملتم هذا لواحد من إخوتي هؤلاء الصّغار، فلي ما عملتموه. فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدي، والأبرار إلى الحياة الأبديّة! (54).

ويشير التّفسير التطبيقي للعهد الجديد أنّه قد « ثار جدل شديد حول : من المقصود "بإخوتي" . فيقول البعض إنّها تشير إلى اليهود، ويقول آخرون إنّها تشير إلى كلّ المسيحيّين، ويقول غيرهم إنّها تشير إلى المتألّمين في كلّ مكان. وهذا الجدل شبيه، بسؤال عالم الشريعة الذي سأل الربّ يسوع، من هو قريبي ؟ (لوقا 10 : 29). فليست النقطة المهمّة في المثل هي "من هم ؟" بل "ما حالهم ؟"، فمساعدة المحتاجين يتمّ حيثما وجد الاحتياج. فالنقطة المركزيّة

في هذا المثل هي أنه يجب علينا أن نحب جميع الناس ونخدم كل إنسان حسبما نستطيع، فهذه المحبة للآخرين تمجد الله لأنها تعكس محبتنا له « (55).

من خلال هذا النص إذن يمكننا إدراك أن الفوز في الآخرة - حسب الاعتقاد المسيحي - مقترن بمحبة الله والآخرين/خلقه. وهذه المحبة هي الجوهر الذي تقوم عليه التعاليم المسيحية. أي محبة الآخر عامة بغض النظر عن جنسه أو أصله أو دينه أو نسبه...

وتبعاً لكل هذا، نتبين أن كلمة محبة تحتل حيزاً هاماً في اهتمامات العهد الجديد. وقد جاء في تفسيرها بمعجم اللاهوت الكتابي: أن الله محبة، ليجب بعضكم بعضاً، وقبل البلوغ إلى هذه القمة من الوحي في العهد الجديد، يجب على الإنسان أن يطهر جميع تصوراته البشرية المحضنة، التي يكونها عن الحب، لكي يتقبل سرّ الحب الإلهي، "ذلك الحب الذي يمرّ بالصليب" (56).

ثم إنه "على الصليب، كما يعتقد المسيحيون، يكشف الحب شدته وطابعه الدرامي بطريقة حاسمة. كان يجب أن يتألم يسوع (لوقا 9 : 88، 18 : 15، 24 : 7 و 26، راجع عبرانيين 2 : 17 - 18) وبملاء حرّيته، يتحمّل صمت الله الظاهري، ويقاسي العزلة الإنسانية المطلقة (مرقس 14 : 50، 15 : 20 - 32)". رغم ذلك كله نراه يصفح للجميع فاتحاً قلبه لهم (57)، وهكذا « يصل يسوع إلى هذه اللحظة الحاسمة لحظة الحب الأعظم وأثناءها يعطي ذاته كلياً لله (لوقا 23 : 4) ولجميع الناس بدون استثناء (مرقس 10 : 54، 14 : 24، 2 كورنثوس 5 : 14 - 15، 1 تيموثاوس 2 : 5 - 6).

(55) التفسير التطبيقي للعهد الجديد، ص 96.

(56) معجم اللاهوت الكتابي، ص 714.

(57) لوقا 23 : 28 و 34 - 43، يوحنا 19 : 27 - 29.

فبالصليب يتمجد الله تماما ويستحق يسوع لنفسه وللإنسانية جمعاء أن يكونا موضوع حبّ الله بدون حدود (يوحنا 10 : 17، فيليبي 2 : 9 - 11) « (58).

من هنا يفهم الإيمان المسيحي في علاقة وطيدة بشرعية المحبة التي جاء بها المسيح عليه السلام، ونذكر في هذا الإطار بكلام الكاتب إلى يسوع : « حسن يا معلّم بالحقّ قلت أنّ الله واحد وليس آخر غيره ومحبته في كلّ القلب وكلّ العقل وكلّ النفس وكلّ القدرة.. » (59).

ب - المحبة الأخوية :

- العهد القديم :

من الواضح أنّه في العهد القديم كملت وصيّة محبة الله بالوصيّة الثانية : لا تبغض أخاك في قلبك، فقد جاء في سفر اللاويين تحت عنوان، "القداسة والسلوك الشخصي" : وقال الربّ لموسى : قل لبني إسرائيل .. لا تنتقم ولا تحقد على أحد أبناء شعبك، ولكن تحبّ قريبك كما تحبّ نفسك، فأنا الربّ (60) وفي واقع الأمر، لم تعط لهذه الوصيّة الأهميّة التي أعطيت للوصيّة الأولى (61).

(58) Vocabulaire de théologie biblique, p 42.

(59) مرقس 12 : 32 - 34.

(60) لاويين 19 : 18. / ويبدو أنّ هذه الوصيّة لم تكن موضوع اهتمام من قبل اليهود، الذين " تحولوا بعد موسى عليه السلام، ومع "الإلاه يهوه" [الذي قاد شريعة الحرب اليهوديّة] إلى مؤسسة عسكريّة متحرّكة إلى كنعان [فلسطين] وجاء هذا الإلاه متسقاً مع طبيعة هذه المرحلة والعنصر، مع ملاحظة أنّ التوراة تقول أنّ موسى عليه السلام قد التقى بهذا الإلاه خارج مصر، وفي منطقة من البوادي أسمتها مديان". سيّد محمود القمني، الأسطورة والتراث، سينا للنشر، ط 2، 1993، ص 178 - 179.

(61) بعد أن ضاق باليهود العيش في مصر، "وأمر الفرعون باستخدامهم كعمالة رخيصة في الأعمال الشاقة .. وفي رحلة الخروج، أو الهروب،.. يسجل اليهود في توراتهم أبشع صور الوحشيّة، فيأتون على كلّ ما يقابلهم في الطريق ذبحاً وتحريقاً، ولم يسلم من أذاهم لا الإنسان ولا الحيوان، ولا حتى نبات الأرض، بعد أن قرّرت لهم الشريعة الرّبانيّة وأباحته، [حسب اعتقادهم] .. وأسفر الربّ العبراني آنذاك عن هويته بوضوح، فأعلن أنّه من الآن الربّ رجل حرب - خروج 15 : 3". (سيّد محمود القمني، الأسطورة والتراث، ص 153). / راجع لاويين 19 : 1 - 37، وتنثية الإشتراع 6 : 4 - 13.

وقد يكون لكلمة القريب معنى محدودا جدًا. ولكنّ الإسرائيلي، مطالب منذ ذلك الوقت بأن يعير اهتماما للآخرين. وتظهر أقدم النصوص أنّ موقف اللامبالاة أو العداء نحو الغير يعدّ إهانة موجهة لله (62).

ويعتقد اليهود أنّ الشريعة تضيف إلى الواجبات نحو الله المتطلبات التي تنظّم العلاقات بين البشر : ومنها مثلاً ما جاء في الوصايا العشر (63)، وقانون العهد الذي تتوفّر فيه الأوامر الحاتّة على مراعاة الفقراء والصّغار (64). وكلّ التراث النبوي (65)، وكلّ تعليم كتب الحكمة (66) تسير في نفس هذا الاتجاه. فلا يستطيع المرء أن يرضي الله بدون احترام سائر البشر وبخاصّة المنبوذين منهم ومن لا يثيرون الاهتمام.. ومن الملاحظ أنّ الرّوحانيّة اليهوديّة – قبل مجيء المسيح عليه السلام – قد عمّقت طبيعة المحبة الأخويّة فشملت محبة الغير، الخصم اليهودي، بل حتّى العدوّ والوثني، وهكذا اتّسعت دائرة المحبة.. (67)

ويذهب علماء بنو إسرائيل إلى أنّ الشريعة التي تسلّمها موسى عليه السلام – وأخذ كتاب العهد فتلا على مسامع الشعب فقالوا كلّ ما تكلم الربّ به نفعله ونأتمر به (68) ونقرأ أيضاً في (سفر الملوك الثاني 23 : 3) وقام الملك [يوشيا) على المنبر وقطع عهداً أمام الربّ على أنّهم يتبعون الربّ ويحفظون وصاياه وشهاداته ورسومه بكلّ قلوبهم وكلّ نفوسهم ليقيموا كلام هذا الميثاق المكتوب في هذا السفر. – تبرز كما يشير لذلك روجيه أرنولديز قائلاً : « إنّ

(62) تكوين 3 : 12، 4 : 9.

(63) خروج 20 : 12-17.

(64) خروج 22 : 20-26، 23 : 4-12.

(65) عاموس 1 : 2، أشعيا 1 : 24-17، أرميا 9 : 2-5، حزقيال 18 : 5-9، ملاخي 3 : 5.

(66) أمثال 14 : 21، 1 : 8-18، سيراخ 25 : 1، حكمة 2 : 10-12.

(67) Vocabulaire de théologie biblique, pp 42 – 43.

(68) نبوءة حزقيال 19 : 5.

ما يستوقفنا هنا هو التعبير : "بكل قلوبهم وبكل نرسهم" فبالواقع، وكما هو وارد مرارا عديدة في سفر المزامير، الشريعة بالنسبة إلى عبد الله هي موضوع حب. وأتتعم بوصاياك التي أحببت (مزمور 118 : 47). وأحببت شريعتك (مزمور 118، 113، 163). ومن ناحيته يرضى الرب من الذين يتقونه من الرّاجين رحمته (مزمور 146 : 11). فالشريعة إجمالا هي التي تصل الإنسان بالله. وفي الشريعة يتحقّق الحبّ الذي يجمعهما» (69).

وبناء عليه يتّضح أنّه كان من السهل أن يرتبط الإنسان بالوصيّتين المتعلّقتين بمحبّة الله والقريب/ الآخر. وهذا ما فعله يوما أحد علماء الشريعة في مقابلة له مع المسيح عليه السلام : وقام أحد علماء الشريعة، فقال له ليحرجه : يا معلّم ماذا أعمل حتى أرث الحياة الأبديّة ؟ فأجابه يسوع : ماذا كتب في الشريعة ؟ وكيف تقرّأها ؟ فأجاب أحبّ الربّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ قدرتك وكلّ فكرك، وأحبّ قريبك كنفسك. فقال له : جوابك صحيح. فإن عملت بهذا تحيا ! (70).

- العهد الجديد :

إذا كان المفهوم اليهودي يرى في المحبّة الأخويّة وصيّة تضاف إلى وصايا أخرى، وعلى نفس المستوى. فالرؤية المسيحيّة توليها الصدارة في اهتماماتها، بل تعتبرها الوصيّة الوحيدة. فالمتمأل في العهد الجديد، يجد كيف يظهر حبّ القريب غير قابل للانفصال عن الحبّ الإلهي : فالوصيّتان هما قمّة الشريعة ومدخلها، (71)، المحبّة الأخويّة، هي تمام العمل بالشريعة. (72). وهي في الأخير الوصيّة الوحيدة، وصيّتي لكم هي هذه : أن يحبّ بعضكم بعضا كما

(69) روجيه أرنولدز : رسل ثلاث لإله واحد، ص 11-12.

(70) لوقا 10 : 25 - 28.

(71) مرقس 33 - 28 : 12.

(72) غلاطية 5 : 14، 6 : 2، رومة 13 : 8 - 9، كولسي 3 : 14.

أنا أحببتكم. ليس لأحد محبة أعظم من هذه : أن يبذل أحد حياته فدى أحبائه (73).

وهي العمل الوحيد والمتعدد الأوجه لكل إيمان حي (74)، لأنّ الذي لا يحبّ أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحبّ الله وهو لا يراه ونعلم أنّا نحبّ أبناء الله إذا كنّا نحبّ الله (75) ولا يمكننا أن نجد تعبيراً أوضح من هذا، ليؤكد أنّ في جوهر الأمر لا يوجد إلا حبّ واحد.

من هنا نتبين إذن أنّ محبة القريب/الآخر، تكتسي طابعاً دينياً عند المسيحيين، فهي ليست مجرد محبة طبيعية للبشر، إنّها دينيّة بمثلها الأعلى وهو محبة الله. لأنّها محبة تتّجه أيضاً إلى الأعداء : ..وسمعت أنّه قيل : تحبّ قريبك وتبغض عدوك.. أمّا أنا فأقول لكم : أحبوا أعدائكم، وباركوا لأعدائكم، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم.. (76) وقد اعتبر اليهود هذه الأقوال، في ذلك الوقت متطرفة ومعثرة، «.. فكيف للمسيح أن يكون مستعداً أن يحول خذّه الآخر [من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له الخد الآخر] لا يمكن أن يكون هو القائد الحربي الذي أراوده ليتولّى قيادتهم في الثورة ضدّ روما. لقد اعتادوا، تحت ظلم الرومان، على حبّ الانتقام والبغضة لأعدائهم.. » (77).

وقد لاحظ "روجه أرنولدز" أنّ كثيرين من المتصوّفة المسيحيين تأملوا "تشديد الإنشاد" وغدّوا به حياتهم الرّوحية. وليست قراءة الكتاب المقدّس في مجمله هي التي كانت تسترعي انتباههم على الحبّ فحسب، بل كانوا يجدون عند القديس يوحنا المجاهرة بأنّ "الله محبة" (رسالة القديس يوحنا 1 : 4 - 16).

(73) يوحنا 15 : 12 - 13.

(74) غلاطية 5 : 6، و 22.

(75) 1 يوحنا 4 : 20 - 21، 5 : 2.

(76) متى 5 : 44 - 45/ انظر أيضاً : أفسس 5 : 1 - 2 و 25، 1 يوحنا 4 : 11 - 12.

(77) التفسير التطبيقي للعهد الجديد، ص 28.

إن أشهر صوفي بينهم هو بلا شك القديس "يوحنا الصليبي"، مؤلف كتاب :
« La vive flamme d'amour ». المنشد الأمل لحب الله.

فبما "أن الله محبة ويحب خلقه، فإنه لطبيعي جدًا بالنسبة إلى متصوف مسيحي، أن يؤمن بأنه سيكون موحدًا بالله بالمحبة. لأن النفس المفتونة بحب الكلمة ابن الله، عروسها الإلهي، إذ هي تتوق إلى الاتحاد به بالرؤية الواضحة لذاته الإلهي، تبسط لها قلبها في الحب وتأخذ عليه غيابه" (78).

من هنا ندرك كيف أن هذا النص الكتابي المتعلق بموضوع المحبة، مشدود بعقيدة الثالوث. "فبما أن الله محبة، فمحبة للإنسان لا تستطيع أن تكون بدون صلة مع هذه المحبة الذاتية التي بها يلد الكلمة" (79).

فمحبة القريب دينية - حسب المعتقد المسيحي - أساسا من حيث مصدرها، فكونوا أنتم رحماء، كما أن أباكم رحيم (80). « وفي انتظار مجيء الرب، تشكل المحبة المطلب الأساسي الذي بموجبه تتم دينونة (81) البشر (متى 25 : 31 - 46) . هذه هي الوصية التي تركها يسوع : ليحب بعضكم لبعض كما أنا أحببتكم (يوحنا 13 : 34 - 35) ... » (82).

وإذ يعيش التلاميذ هذه المحبة الأخوية، في عالم لا ينتمون إليه (83)، فهم بذلك يثبتون وصية المسيح : وصية جديدة أنا أعطيتكم : أحبوا بعضكم بعضا،

(78) روجيه أرنولدز، رسل ثلاث لإله واحد، ص 183 - 184.

(79) المرجع نفسه، ص 184.

(80) لوقا 6 : 36.

(81) دينونة (Jugement) / الدينونة الأخيرة أو الدينونة العامة : يعتقد المسيحيون، أن المسيح سيكشف عند مجيئه الأخير مصير جميع الناس الأبدي. شعر العهد القديم بأن الرب سيدين جميع الناس (حك 7 / 3 - 13 و 4 / 20 و 5 / 23) . أما العهد الجديد، ففيه ترافق بين آخر الأزمنة وظهور سيادة المسيح والقيامة العامة والدينونة الشاملة وتجدد الأرض والسماء [متى 25 / 31 - 32] .. (الأب صبحي حموي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، ص 219).

(82) معجم اللاهوت الكتابي، ص 715.

(83) يوحنا 17 : 11 و 15 - 16.

كما أحببتكم أنا، بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي : إن كنتم تحبون بعضكم بعضا⁽⁸⁴⁾. ومن الملاحظ أنه « لم تكن محبة الآخرين وصية جديدة (لاويين 19 : 18) ولكن أن نحب الآخرين كما أحب المسيح الآخرين فكان ثورة فكرية⁽⁸⁵⁾ ».

ندرك من خلال كل ما تقدّم، انطلاقاً من الاعتقاد المسيحي وحسب التفسير الكتابي، "أنّ إله المسيحيين وفق إقرارهم بالذات هو الإله الذي انكشف لإبراهيم واسحق ويعقوب [عليهم السلام]، والذي لم يتوان شعبه المختار عن الإحتفال بحضوره، وحمده على جليل نعمه. لكنّ تعليم الكتاب المقدّس، وإن عبّر عن حقائق محض دينية، هو من وجهة النظر المسيحية تعليم إعدادي معدّ لتتّيف الفكر البشري في وسط شعب اختير لهذه الغاية، وتهيئته لقبول التعليم النهائي الذي أتى به يسوع"⁽⁸⁶⁾.

ويبدو أنّ فكرة إتمام الشريعة "تفترض ملء أطر هذه الشريعة، وإعطائها مضمونا داخلياً كاملاً، وبالتالي ربطها بالباطن"⁽⁸⁷⁾. إنّ ما يريده المسيح عليه السلام هو أن تعبّر الشريعة عن حاجات ضمير حيّ للغاية، يدفع حتّى أدقّ طبائع الشرّ، لذلك فهو لا يتمسك بحرفيّة تشريع يمكن مراعاته من دون التنقيّة الداخليّة، هذا إن لم يكن يخرق شرائع مقدّسة تحت ستار شريعة مكتوبة وثابتة، إذ كان يشفي المرضى حتّى في السبّ، ويأذن لهم في ذلك اليوم بقطع السنابل ليأكلوها⁽⁸⁸⁾.

وها هو المسيح عليه السلام يجيب متّهميه بخرق الشريعة/ شريعة السبّ : لو فهمتم معنى هذه الآية : إنّما أريد الرّحمة لا الذّبيحة، لما حكمت

(84) يوحنا 13 : 34 .

(85) التفسير التطبيقي للعهد الجديد، ص 362 .

(86) روجيه أرنولدز، رسل ثلاث إله واحد، ص 13 .

(87) المرجع نفسه، ص 14.

(88) متى 12 : 1 - 5 .

على من لا حرج عليه (89). وإن كلمة " رحمة " تفسّر ما معناه بالعبريّة : الصّلاح، النّعمة، الحبّ، وغالبا ما تطلق على حبّ الله الشّفوق للّذين يتّقونه (90) من هنا كانت الشريعة التي يحملها عيسى عليه السلام - والتي جاءت لإتمام شريعة موسى عليه السلام - كما يعتقد المسيحيّون، شريعة الحبّ.

3 - المحبة لله والآخر من خلال القرآن الكريم :

إذا كانت المحبة بين الله والبشر قد ظهرت في العهد القديم خلال سلسلة من الأحداث، ثمّ تجلّت في العهد الجديد من خلال حادث مجيء المسيح عليه السلام الذي ظهر الحبّ الكامل في شخصه كما تعتقد المسيحيّة، فإنّ المحبة قد توضّحت بصفة أكثر واقعيّة وشموليّة بمجيء النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وبنزول القرآن الكريم (91)، الذي وإن لم يكن يزخر بالكمّ العددي لمادّة (ح - ب) مقارنة بالكتاب المقدّس وخاصّة في عهده الجديد، حيث وردت مادّة (ح - ب) في القرآن قرابة [81] مرّة، في حوالي [19] صيغة (92). إلّا أنّ خاصيّة هذه المحبة في هذه المرّة أصبحت أكثر تحديدا، وواقعيّة، لأنها تتّجه نحو الهدف الأسمى لهذه المحبة، وهو تقوى الله تعالى في كلّ عمل، وخاصّة فيما يتّصل بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان. لذلك فإنّ المتأمّل في القرآن الكريم يجد أنّه رسم شكلين أساسيين للمحبة :

أ - حبّ عمودي :

من الله تعالى إلى الإنسان، ثم من الإنسان إلى الله. فهو إذن من أعلى إلى أسفل (الإنسان)، وفيه دليل واضح على حبّ الله تعالى لعباده، تبعا لقوله

(89) متى 12 : 7.

(90) روجيه أرنولدز، رسل ثلاث لإله واحد، ص 14 .

(91) وردت لفظة الحبّ ومشتقاتها في 31 سورة من أصل 114 سورة، وتكرّرت 81 مرّة في سياقات مختلفة.. (عبد الباقي محمد فواد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الجبل، بيروت، (د - ت)، ص 191 - 192 - 193).

(92) المرجع نفسه، ص 191 - 192 - 193.

تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾⁽⁹³⁾ وإن كان لا يجد دائما تجاوبا صريحا من قبل الإنسان. إلا أنه تعالى توعد المرتدين غير التائبين قائلا : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿⁽⁹⁴⁾.

وفي المقابل، حدد الله تعالى الأصناف البشرية التي يحبها : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ⁽⁹⁵⁾، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ⁽⁹⁶⁾، وَيُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ⁽⁹⁷⁾ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ⁽⁹⁸⁾، وَيُحِبُّ الشَّاكِرِينَ انظر (آل عمران، 144)، وَيُحِبُّ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ⁽⁹⁹⁾، وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ⁽¹⁰⁰⁾ ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (سورة الصف، 4). وقد نفى تعالى عن نفسه أن يحب قوما لأجل صفات قامت بهم لا يحبها، فحوى الخطاب أنه سبحانه يحب زوالها ولا تزال إلا بضدّها ولا بدّ، فقال وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ⁽¹⁰¹⁾ وقال : إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ⁽¹⁰²⁾ وَلَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا⁽¹⁰³⁾ وَلَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ⁽¹⁰⁴⁾ وَلَا يُحِبُّ

(93) سورة النور، 55 .

(94) سورة المائدة، 54 .

(95) سورة البقرة، 222 .

(96) سورة التوبة، 108 .

(97) سورة الممتحنة، 8 .

(98) سورة آل عمران، 146 .

(99) سورة آل عمران، 148 .

(100) سورة التوبة، 4 .

(101) سورة المائدة، 64./انظر أيضا، البقرة، 205 .

(102) سورة القصص، 76 .

(103) سورة النساء، 36 .

(104) سورة الشورى، 40./انظر أيضا، آل عمران، 57 .

المُسْرِفِينَ (105) وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (106) وَلَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ (107) وَلَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (108) وَلَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (109). وحبَّ الله تعالى للإنسان أيضاً، كما أوضحه المتصوّف المسلم / الأندلسي محي الدين ابن العربي (110) (ت 638 هـ / 1240 م)، « .. الحبّ الإلهي هو أن يحبّنا الله تعالى لنا ولنفسه، أما حبّه إيانا لنفسه فهو قوله : "أحببت أن أعرف فخلقت الخلق فتعرّفت إليهم فعرفوني". فما خلقنا إلّا لأنفسه حتّى نعرفه، وقوله وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، فما خلقنا إلّا لأنفسه، خلق سبحانه الخلق ليسبّحوه فنطقهم بالتسبيح له والثناء عليه والسجود له ... وهذا كلّ من حكم حبّه إيانا لنفسه، فمن وفي شكره ومن لم يوفّ عاقبه، نفسه أحبّ وتعظيمه والثناء عليه أحبّ. وأما حبّه إيانا لنا، فلمّا عرفنا به من الأعمال التي تؤدّينا إلى سعادتنا ونجاتنا من الأمور التي لا توافق أغراضنا ولا تلائم طباعنا، وعرفنا بمصالحنا دنيا وآخرة ونصب لنا الأدلّة على معرفته حتّى نعلمه ولا نهمله، [...] فعلمنا أنّه لولا ما أحبّنا ما كان كلّ شيء... » (111).

من هنا تكون محبة الإنسان لخالقه تعالى تتصل أساساً، بالاستجابة لأوامره ونواهيه. أي عبر الاتّصاف بكلّ الصفات التي أحبّها الله تعالى في عبادته : كالنوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (112)، والتطهّر ﴿ وَيُحِبُّ

(105) سورة الأنعام، 141.

(106) آل عمران، 32.

(107) سورة النساء، 148.

(108) سورة المائدة، 87. / انظر أيضاً، البقرة، 190.

(109) سورة النحل، 23.

(110) محي الدين ابن العربي ت 638 هـ / 1240 م صوفي أندلسي لقّب بالشيخ الأكبر له قرابة 400 كتاب منها : الفتوحات المكيّة، فصوص الحكم، مفاتيح الغيب، التعريفات، ...

(111) ابن عربي محي الدين : الحبّ والمحبة الإلهيّة، جمع وتألّف محمود محمود الغراب، دار الفكر، سوريا، (د - ت)، ص 16..

(112) سورة البقرة، 222.

الْمُنْطَهَرِينَ ﴿١١٣﴾، وَالصَّبْرَ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١١٥﴾، وَالشُّكْرَ ﴿١١٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١١٧﴾.

ب - حبّ أفقي :

من الإنسان إلى الإنسان، والمحيط. فهو يتجه إلى سبيل التماسك الاجتماعي والبناء الحضاري والمدنية الإنسانية، من أجل إنقاذ الإنسان من جاهليته وأنانيته. ثم إنه سبحانه حبب إلينا أشياء منها مطلقة ومنها بالتزيين، فقال ممثلاً علينا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (١١٦). وقال ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ (١١٧).

بناء على هذا، نتبين أنّ القرآن وإن لم يطنب في الحديث عن المحبة - مقارنة مع الكتاب المقدس - إلاّ أنّه في المقابل ركّز على الهدف الأساسي منها. فأكد هذا الكتاب إلى جانب السنة النبوية (١١٨) - التي جاءت مبيّنة له

(١١٣) سورة البقرة، 222.

(١١٤) سورة آل عمران، 146.

(١١٥) سورة لقمان، 12.

(١١٦) سورة الحجرات، 7.

(١١٧) سورة آل عمران، 14.

(١١٨) تمثل السنة النبوية [أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأفعاله وتقريراته] المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بعد القرآن الكريم. فقد أخبر الله تعالى عن مهمة هذا النبي بالنسبة للقرآن، أنه مبين له وموضح لمراميّه وآياته، حيث يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل، 44). والسنة النبوية كما أوضح علماء الإسلام، كالشافعي (ت 204 هـ / 820 م) رحمه الله، هي الحكمة الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحدثت عنها الآية : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران : 164). والله تعالى أوجب على المسلمين اتباع الرسول فيما يأمر به وينهى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر : 7). واعتبر طاعته وإتباعه حباً، "مَنْ طُوعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" (النساء، 80). وقال أيضاً : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران، 31) (مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، مصر، د - ت، ص 50 - 51).

وموضحة لمراميه -، على سلوكيات وأخلاقيات هي في الغالب هدفا لهذه المحبة في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

فالإسلام إذن يتجه بمصدره القرآن والسنة النبوية مباشرة إلى الغرض من هذه المحبة. إنه يمر أساسا إلى الناحية العملية فيؤكد على : الرحمة⁽¹¹⁹⁾. التي وردت في القرآن في ستة وثلاثين صيغة⁽¹²⁰⁾.

كل هذا يضاف إليه مئات الأحاديث النبوية التي أكدت على الرحمة والتراحم والبرّ عامة، من ذلك مثلا الحديث الذي رواه عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنّ من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى، قالوا : يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فو الله إنّ وجوههم لنور وإنهم لعلّ نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون⁽¹²¹⁾ أي أنّ هؤلاء المتحابون في ظلّ العرش تجدهم يوم القيامة، في شدة الهول، في رعاية الله وكنفه وفي مقامات التكريم على منابر النور. وفي

(119) يبلغ عدد الآيات القرآنية التي تتحدث عن الرحمة ومشققاتها : أساسا الرحمة من الله الخالق/القوة، نحو الإنسان، قرابة 340 آية (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 304 - 305 - 306 - 307 - 308 - 309).

(120) انظر على سبيل المثال الآيات القرآنية التالية : البقرة، 107 - 178 - 218 / آل عمران، 107 - 157 - 159 / النساء، 96 - 175 / الأنعام، 12 - 54 - 133 - 147 - 154 - 157 / ...

والبرّ عامة قرابة ثمانين آيات (البقرة، 44 - 177 - 189 / آل عمران، 92 / المائدة، 2 / المجادلة، 9). وبرّ الوالدين قرابة إحدى عشر آية (البقرة، 83 - 180 / النساء، 36 - 135 / الأنعام، 151 / الإسراء، 23 / لقمان، 14 / مريم، 14 / العنكبوت، 14 / الأحقاف، 15 - 17 / إبراهيم، 41 / النمل، 19 / نوح، 28). وبرّ الأولاد (الأنعام، 151 / الإسراء، 31). وبرّ العائلة [صلة الرحم] (البقرة، 233). وبرّ اليتيم، قرابة الثلاثة وعشرون آية نذكر منها على سبيل المثال : البقرة، 83 - 177 - 215 - 220 / النساء، 2 ... الأنعام، 152 / الإسراء، 34 / الفجر، 17 / الضحى، 9 / الماعون، 2 / ... وبرّ الجار (النساء، 36) ...

(121) أبو الطيّب محمد شمس الحق آبادي : شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، كتاب البيوع، باب الزهن، م 5، ج 10/9، حديث رقم 3522، ص 322.

ذلك ترغيب عظيم في المحبة في الله، أي بغير معاملة دنويّة ولا قرابة بينهم (122).

كما أن الإسلام بالإضافة لذلك ينهى عن سلوكيات تقف أمام هذه المحبة والتواصل كالظلم الذي ورد في [47] صيغة، وأشدّه ظلم النفس البقرة، 54 - 59 - 150 - 165 - 231 / .. وقرابة 151 آية أخرى، وكذلك ظلم الآخرين (123).

كما نهى الإسلام أيضا عن النّميّة والغنية وظنّ السوء والحقد والحسد والكبر والسبّ والقذف واحتقار الآخرين والبخل والمراء وسوء الخلق والكذب والنفاق والعصبية. وقد أكدت السنّة النبويّة في هذا الإطار : عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : من أحبّ الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان (124). وعن أبي ذرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الأعمال الحبّ في الله والبغض في الله (125) (رواه أبو داود) أي أن الذي يتقي الله ويصبح ربّانياً في كلّ ما يصدر عنه يكون قد أحبّ الله والآخرين فعلاً. إذن تبعاً لكلّ هذا ندرك أن المؤاخاة/المحبة، بالموّدة تعدّ من أسمى الوصايا النبويّة / الإسلاميّة. وقد أكّد الرّسول محمّد صلى الله عليه وسلم في خطبته الثانية : ... أحبّوا ما أحبّ الله، أحبّوا الله من كلّ قلوبكم،..وتحابّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده.. (126).

(122) علي ناصف منصور : التّاج الجامع للأصول في أحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم، دار التراث العربي، بيروت، ط 4، 1406 هـ/1986 م، ص 83.

(123) عبد الباقي محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 434 - 435 - 436 - 437 - 438.

(124) سنن أبي داود، كتاب السنّة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، م 6، ج 12/11، حديث رقم 4666، ص 185.

(125) المصدر نفسه، كتاب السنّة، باب مجانبة أهل الأهواء وبغضهم، م 6، ج 12/11، حديث رقم 4586، ص 228.

(126) ابن هشام أبو محمد عبد الملك : السيرة النبويّة، دار صادر، بيروت 1424 هـ / 2003 م، ص 90.

لمثل هذا آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه [المهاجرين والأنصار] (127) لتزيد ألفتهم ويقوى تضافرهم وتتناصرهم. ولكن القرآن تجاوز المؤاخاة بين المسلمين فكان خطابه في هذا المجال عامًا يخص كافة الناس بدون استثناء مؤمنين وغير مؤمنين، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئسَ الاسمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (128). وقال تعالى أيضا: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (129). والمتأمل في الآية الثالثة عشر من سورة "الحجرات" يلاحظ أن الخطاب فيها يتجه إلى كافة الناس بدون استثناء، فالقرآن هنا لا يخاطب المؤمنين فقط، بل كافة الناس، فيدعوهم إلى التعارف والتعايش، واتقاء الله.

ثم إن السنة النبوية أيضا قد أرست قاعدة حب الآخر، ودعت إلى المساواة بين كافة الناس، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لأدم وآدم من تراب ... ليس لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى. ومعلوم أن التقوى في القرآن طريق إلى حب الله ورضاه. يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ اتَّقُوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (130).

(127) المرجع نفسه، ص 91.

(128) سورة الحجرات، 10 - 11 - 12 - 13.

(129) سورة الممتحنة، 8.

(130) سورة المائدة، 93.

والمؤاخاة في الناس قد تكون على وجهين : أحدهما أخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار. والثانية : مكتسبة بالقصد والاختيار. فأما المكتسبة بالاتفاق فهيؤكد حالا، لأنها تتعقد عن أسباب تعود إليها. والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد إليها، وما كان جاريا بالطبع فهو ألزم مما هو حادث بالقصد. (131).

أما المؤاخاة بالمودة فهي التي تكتسب بصادق المهر إخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاة ومحاماة، فهي أعلى مراتب الألفة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لقاء الإخوان جلاء الأحران. وقال خالد بن صفوان : إن أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .. (132).

كما يظهر تأكيد الإسلام على مبدأ محبة الله، والقريب / الآخر، خاصة في دعوته إلى التسامح، عبر التعايش السلمي. والسماحة هي سهولة المعاملة فيما اعتاده الناس في الشدة، فهي وسط بين الشدة والتساهل. ونوه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الخصلة. إذ جاء في الحديث الصحيح عن جابر عن عبد الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله رجلا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى. فالتسامح ينبثق من التعاليم الواردة في القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحض المسلمين على اعتماد السماحة في معاملة بعضهم لبعض أو معاملتهم لأهل الأديان الأخرى (133).

(131) الماوردي أبو الحسن : أدب الدنيا والدين، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، مصر، دت، ص 163.

(132) المرجع نفسه، ص 162.

(133) موادعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لليهود، (أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، ص 90).

والعقيدة الإسلامية خلقت من تفكير المسلم بحضه وتدريبه وتربيته تفكيراً سليماً يمكنه من حسن معاملة الغير وقبول الرأي المخالف، وهو مؤمن بصحة عقيدته ومطمئن لما قاله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (134).

كما أوصى بحسن معاملة المخالفين الذين لم يظهروا عداوة للمسلمين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (135). من هنا نفهم أن القرآن الكريم (136) والسنة النبوية المطهرة، قد حددا موازين وشواهد للمحبة الإلهية، لقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (137). وقال أيضاً قل ﴿إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (138). فلم يجعل الحق سبحانه حبَّ العبد له دعوى بلا شاهد ولا برهان، كما اشترط في حبِّه العبد الإتيان للرسول صلى الله عليه وسلم. ورحم الله الإمام أبا حامد الغزالي (ت 505 هـ/1111م) إذ يقول «إذا قيل لك اتحبَّ الله ورسوله فاسكت، فإنك إن قلت لا، كفرت، وإن قلت نعم، طولبت بالدليل» (139).

(134) سورة المائدة، 105.

(135) سورة الممتحنة، 8.

(136) يذهب روجيه أرنولدز إلى أنه لو تأملنا في التراث الصوفي الإسلامي فسنجد أنه لم يتسرَّب شيء من "نشيد الإنشاد" إلى القرآن، مبيِّنا أن المسلمين يتخذون تجاه "الحب كعاطفة" موقفاً حذراً. ولكن هناك عبارة أخرى أثرت بعمق في تأملات المتصوفين المسلمين، وهي: "الخلَّة" المأخوذة من قوله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، النساء 4، 125. ويظن أنها مقام أرفع من "المحبة". لأنها تخلي القلب من كل حب لا يكون حبَّ المحبوب الوحيد. إنها الصورة المكتملة والأسمى للحب. (روجييه أرنولدز، رسل ثلاث لإله واحد، ص ص 189 - 190).

(137) سورة المائدة، 54.

(138) سورة آل عمران، 31.

(139) ابن عربي محي الدين، الحبَّ والمحبة الإلهية، ص 7.

مما تقدم نتبين أنّ هدف الشرائع السماوية الثلاث - وإن اختلفت - واحد. هو محبة الله والقريب.. أمّا محبة الله تعالى فتتجلى في توحيده وطاعته، عبر تطبيق أوامره ونواهيه. كما أنّه في محبة القريب /الآخر أيضا استجابة له تعالى. وهكذا نفهم أنّه ثمة سبيل واحدة لتحديد معنى كلمة استعملت في عصر التوراة أو الإنجيل أو القرآن، هو أن نأتي بنماذج من استعمالات هذه الكلمة. ففي العهد القديم في قصة سدوم وعمورة - فأمطر الربّ على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عنده من السماء (140). - « نرى جانبين من طبيعة الله : صبره العظيم (بالنظر إلى استعداده للعفو عن مدينة شريرة لأجل عشرة رجال صالحين)، وغضبه العظيم بتدميره المدينتين وعندما ننمو روحيا، لا بدّ أن نجد أنفسنا وقد امتلأت قلوبنا بخوف عميق من نحو الله (بسبب غضبه على الخطيئة)، ومحبة أعمق له (بسبب صبره عندما نخطئ) » (141).

أمّا المسيحيون، فقد آمنوا بأنّ الله هو الذي يمنح الأرض والأموال لبعضهم، تماما كما يمنح المهارة والقدرات لبعضهم الآخر، وقد أصروا على معاملة الناس أجمع باحترام متساو، فلم يهابوا الأقوياء ولا احتقروا الضعفاء.

لقد خافوا الله وحده، وأحبوا جميع الناس. وكانوا يستقبلون الفقير والمتواضع بلطف ويكيلون له بالمعايير الصادقة والأمانة عينها التي يكيلون بها للأغنياء ذوي النفوذ (142).

في حين أنّ الإسلام جاء بعد أن قست القلوب واختلطت على الناس الأمور، فضاعت المعاني وغابت الجسور، وبقيت الرسوم، وأصبح المنكر معروفا والمعروف منكرا. إذ أصبحت القيم لا معنى لها، وإن بقيت باهتة، وصارت توزن بموازين الزمان عندما ضاع الميزان، وأصبح الإنسان لا يفرق

(140) سفر التكوين 19 : 24.

(141) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص 52 .

(142) روبين دانيال : أصول التراث المسيحي في شمال إفريقيا (دراسة تاريخية عن القرنين الأولين) ترجمة : سمير مالك، دار منهل الحياة - لبنان، 1999، ص 61.

بين الحب الحقيقي والحب الوهمي. فمن إحسانه تعالى علينا أن بعث إلينا رسولا من عنده معلما ومؤدبا، علمنا كيف نحب في الله والله. عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار⁽¹⁴³⁾.

وبتمييزنا بين فهم الإيمان وحياة الإيمان، عبر مقارنة النصوص الكتابية الثلاث [التوراة والإنجيل والقرآن] يمكننا الوقوف على الفوارق العميقة التي تفصل الديانات السماوية الثلاث [بمضمونها الحالي] وعلى التعارض العقائدي ظاهريًا. إلا أن ذلك لا ينفي أن الجوهر يكشف عن أحادية المصدر. وهذا يتطلب حتما، ضرورة التركيز في البحث عن الوحدة في هذا التنوع، رغم الصعوبات الحافة بهذه المسألة.

ومن خلال ما تقدم بسطه، يمكننا إدراك أن للمحبة قيمة دينية معلومة، أكدت عليها الشرائع السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلامية، إذ نجدها تتفق في نقاط كثيرة ذات علاقة بالنظام الأخلاقي السلوكي بهدف خدمة الإنسان بغض النظر عن انتماءه الاجتماعي والعقائدي.

(143) البخاري محمد ابن إسماعيل : صحيح البخاري، دار الجيل، بيروت، كتاب الإيمان : باب حلاوة الإيمان، المجلد 1، ص 10.